



دور نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية

د. طاهر بن علي

قسم التاريخ / جامعة غرداية

Email : ezzahirit@gmail.com

ملخص

الكتابة التاريخية علمية بمناهجها التي تحدّد اتجاهها المعرفي، فهي تتأسّس على إنشاء الوثائق، إذ لا تاريخ بدون وثائق. وعلى المؤرّخ أن ينشئ وثائقه ليباشر الكتابة من أجل إعادة بناء الماضي على ما كان عليه. وكلّما كانت ميادين التاريخ متعدّدة، كانت الوثائق متنوّعة، وعلى المؤرّخ أن يفحص كلّ ما تقع عليه يده من مخلفات الماضي ليصنع منها وثائق يستند إليها في إثبات الحقائق. لذلك وجد نفسه أمام كمّ هائل من الكتب والمقالات في علوم كثيرة، وفنون جمّة، يقرؤها ويستخلص منها الإشارات التي تمكّنه من فهم الماضي. وكتب الرحلة واحدة من هذه الكتب التي يجب عليه الرجوع إليها، إذ هي من مخلفات الإنسان الأدبية التي ضمّنها الحديث عن الكثير من مناحي حياته اليومية، أو جوانب مشاهداته في تنقّلاته، أو تأمّلاته في تفاعلاته مع كلّ ما يعترضه. والمقال مقارنة منهجية في استخدام نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية وموضعها من الحقيقة التي يروم إليها الباحث في تحرير النصّ التاريخي .

الكلمات الدالة: الكتابة التاريخية؛ الرحلة؛ الوثائق؛ المصادر .

The role of journey texts in historical writing

Abstract

Historical writing is scientific in its curricula that determine its cognitive direction. It is based on the creation of documents, as there is no history without documents. The historian must create his documents to begin writing in order to reconstruct the past. The documents are varied whenever there are many field of history. The historian must examine all the legacy of the past that he touches in order to make documents to rely on the in establishing facts. Therefore, he found himself facing a huge number of books and articles in many sciences and arts. So historian reads and extracts signs that enable him to understand the past. The trip books are one of these books that we must refer to, since is the human literary remnants that were included in the discussion about many aspects of his daily life, or aspects of this observations in his movements, or his hopes in his interactions with all that he may face. The article is systematic approach in using the journey texts in historical writing and its

position from the fact that the researcher intends to in publishing the historical text.

key word: the historical writing, the journey, the documents, the sources.

توطئة:

لا يمكننا أن نكتب التاريخ إلا من خلال سند نعتمده من أجل إثبات الوقائع والحقائق كما حملها الماضي. وتمثل النصوص أكثر ما نتوسل به إلى إثبات أو إلى نفي في أصول الأحداث، وما مضى به التاريخ.

ومن خلال ما ترك السلف من نصوص وآثار، سواء منها التي كتبت لغرض التاريخ أو التي كتبت لغرض آخر، يمكنني أن نقارب الماضي بصريحها وتلمييحها، بإشارتها وإيائها. فهي التي توقفنا على صورتهم الزمنية.

وليست حقبة التاريخ واختلاف الجغرافيا بسواء في وفرة النصوص، فمنها من حازت الاهتمام من التأليف في تاريخيتها، أو التأليف في شتى المجالات التي تنبئ عن حالها، ومنها من شحت فيها النصوص، وكلت فيها القرائح، فخفي عنا من تاريخنا الكثير. وكان لزاما على المؤرخ أن ينقب في كل ما وجد لعله يظفر بالمطلوب.

وكان من هذه النصوص كتابات الرحلة التي تحمل نصوصها كل الصور التي استطاعت القرائح التقاطها رؤية أو سماعا، وسجلتها ضمن جزئيات الرحلة من أجل إبراز خصوصياتها على المستوى النفسي والزمني.

ولكن نصوص الرحلة لم تكتب لغرض التاريخ ولا بمناهجه، ولكنها سياقات فيها من فنية الأدب أكثر من علمية التاريخ، ومن الانفعال النفسي أكثر من عقلانية التأمل، ومن تأثير اللحظة أكثر من سيرورة الزمن.

ومن هذا السبيل؛ تبحث هذه الورقة البحثية إشكالية أهمية نصوص الرحلة في الكتابة التاريخية، وموقعيتها من منظومة الفكر التاريخي الناهد إلى تحرير الماضي في سياقات الحاضر، بسطا للفهم، وبناء للمعرفة.

1- التوثيق في تمثلات الفكر التاريخي:

في خضمّ الجدل الذي أحدثته الأفكار حول طبيعة التاريخ في القرن التاسع عشر، والذي تعدّى التاريخ إلى ما وراء التاريخ نظرا وفلسفة، وإلى اللاتاريخ⁽¹⁾ تنظيرا وأدلجة، قام اتجاه يريد أن يكون التاريخ خالصا للتاريخ، وليس أداة لبناء فلسفة مهما كانت اتجاهاتها الاجتماعية⁽²⁾. وأنّ خلوص التاريخ إنّما هو إعادة إحيائه كما حدث في الزمن الماضي، وليس ذاك إلاّ بالاعتماد على الوثائق.

مثّل هذا الاتجاه في فرنسا فوستيل دي كولانج (Fustel De Coulanges)، الذي كان لا يرى التاريخ إلاّ في السرد الذي يعتمد على الوثيقة، فاعتماد الوثيقة عنده هو المنهج الأصوب في كتابة التاريخ، فلا شهادة على ما حدث إلاّ من خلال الوثيقة، إذ هي الشاهد التاريخي الوحيد⁽³⁾.

"وكانت تمثلاته في محاولات الكتابة التاريخية وتوقيع الأحداث تقوم دائما على توفير النصّ إثباتا ونفيا⁽⁴⁾. بل يذهب مذهب متطرفا⁽⁵⁾ حينما يجعل مخالجة أخذ النصوص لذهنية المؤرّخ معيارية ميوله العقلية والوجدانية⁽⁶⁾. ويجد غبنا حينما يكون اتّصاله بالمعطى الوثائقي غير مكتمل⁽⁷⁾ النصاب المعرفي"⁽¹⁾.

(1) لا نعلم مثل هذه الألفاظ في منظومة لغتنا، ولكننا اضطررنا إليه، لأنّ القارئ يصادفه كثيرا في الكتابات المعاصرة.

(2) لتحصيل المعنى في هذا ينظر:

Paul (Veyne) : Comment en écrit l'histoire, Editions du Seuil, Paris 1996.

(3) Eduard (Fueter): Histoire de l'historiographie moderne, Traduit de Emile Jeanmaine, Librairie Felix Alcan, Paris 1914, p 705.

(4) Lucien (Febvre): Psychologie d'historiens : deux lettres de Fustel de Coulanges à Gabriel Monod et une lettre de Ferdinand Lot sur Fustel, in : A E S C, V 09, No 02, Paris 1954, pp 151, 155.

(5) أقصد بالتطرّف الشغف الحارّ الذي يستدعي القيمة في كلّ محاولات التفسير والمقارنة.

(6) Fustel (De Coulanges) : Questions historiques, Librairie Hachette, Paris 1893, p 03.

(7) Paul (Guiraud) : Fustel de Coulanges, Librairie Hachette, Paris 1896, pp 88-89.

ومثله في ألمانيا رانكه الذي كانت الوثيقة⁽²⁾ مجال حفره لتحصيل المعرفة التاريخية، فمن دون الوثيقة لا يمكن أن يسمى أي جهد مهما اتصف بالتاريخ. وأن المنهج النقدي للوثيقة هو ما يعطي صفة الموضوعية للبحث التاريخي⁽³⁾، فمن خلالها يطمئن إلى أن المراد هو الماضي بفاعليته في الزمن، أي تحديد الأثر الإنساني كما حدث. وبتشدد كبير⁽⁴⁾ في تحديد الوثيقة مصدرا للمعرفة التاريخية⁽⁵⁾، جنح رانكه إلى الموضوعية العلمية وابتعد عن النظرية الفلسفية، وذلك باستحداث الوثيقة موضوعا منهجيا لتوجهات البحث التاريخي. وكان له الدور البارز في تكوين مدرسة تاريخية كان لها تأثير لدى المؤرخين الألمان والفرنسيين⁽⁶⁾. وعلى منهجه تكونت مدرسة المنهجية التي انتظمت اتجاها مدرسيا حول مجلة "La Revue historique"، التي تأسست سنة 1876⁽⁷⁾. وتزعمها شارل سينيوبوس Charles Seignobos وشارل فكتور لانغلويس Charles-Victor Langlois.

(1) طاهر بن علي: دور النوازل في الكتابة التاريخية -نوازل الأندلس في القرنين 8 و9هـ/ 14 و15م نموذجا، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف أ.د. الحاج العيفة، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الموسم الجامعي 2013-2014، ص 89.

(2) Edward (Gaylord Bourne) : Essays in historical criticism, London 1901, p 250.

(3) محمد عبد الرحمان برج: الموضوعية في التاريخ، مجلة كلية الآداب، ع 02، الجزائر 1970، ص 28.

(4) قيس ماضي قزو: المعرفة التاريخية في الغرب -مقاربات فلسفية وعلمية وأدبية، ط01، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2013، ص 19.

(5) Anthony (Grafton) : Les origines tragiques de l'érudition, traduit par Pierre-Antoine (Fabre), Edition du Seuil, Paris 1998 , p 58

(6) حول مدرسة رانكه، أنظر:

Janes (Westfall Thompson) : A history of historical writing, The Macmillan Company, New York 1942, pp 187-204.

(7) Charles-Olivier (Carbonell): L'histoire dite "positivisme" en France, in: Romantisme, Paris 1978, No 21-22, p 174.

اجتهد سينيوبوس ولا تغلوا في التنظير والتأسيس لاتجاه اعتماد الوثيقة منطلقا للكتابة التاريخية، وأن التاريخ لا يصنع إلا من الوثائق⁽¹⁾، وحيث لا وثائق لا تاريخ⁽²⁾، كما قرّرا في كتابهما.

ويمكننا أن نسرّد النصّ التالي لتوصيف ذهنية مدرسة المنهجية، إذ يقولان: "التاريخ يصنع من وثائق. والوثائق هي الآثار التي خلفتها أفكار السلف وأفعالهم. والقليل جدًا من هذه الأفعال والأفكار هو الذي يترك آثارا محسوسة، إن وجدت فنادرًا ما تبقى... وبفقدان الوثائق صار تاريخ عصور متطاولة من ماضي الإنسانية مجهولًا أبدًا. إذ لا بديل عن الوثائق...، فالبحث عن الوثائق وجمعها قسم من الأقسام الرئيسية المندرجة في مهمة المؤرخ يأتي منطقيا في المرتبة الأولى... فلا وسيلة إلا بجمع الوثائق من مختلف الأنواع، خصوصًا المكتوبة... فلنقل إذن إنّ تقدّم البحث في التاريخ يتوقّف شطر كبير منه على تقدّم العمل في ثبت عام بالوثائق التاريخية... والواقع أنّ من يرمي إلى جمع الوثائق لدراسة ناحية من نواحي التاريخ يبدأ باستشارة المراجع والأثبت⁽³⁾...

... إنّ الوقائع لا يمكن معرفتها تجريبيًا إلا بطريقتين: إمّا مباشرة إذا لوحظت وهي تحدث، أو بطريقة غير مباشرة بدراسة الآثار التي تركتها... والخاصة المميزة للوقائع التاريخية هي أنّها لا تدرك مباشرة بل وفقا لآثارها، ولهذا فإنّ المعرفة التاريخية هي بطبيعتها معرفة غير مباشرة... ولا نعرفها إلا بما بقي لنا من آثار عنها... فالوثيقة هي نقطة الابتداء، والواقعة الماضية هي نقطة الوصول"⁽⁴⁾.

(1) Charles-Victor (Langlois) et Charles (Seignobos) , Introduction aux études historiques, éditions Kimé, Paris 1992 , p 29.

(2)op, cit, p 29.

(3)Ibid, pp 29-40.

(4)Ibid, pp 65-66.

وهكذا فإنّ كلّ التأسيسات لدى مدرسة المنهجية الوضعية هي القراءة النقدية للوثائق، ومقارنتها⁽¹⁾. وقد حاول أقطابها أن يمدّوا تنظيرهم بتطبيقات عملية بتأليف الكتب التي تمنح الدارس نموذجية ملموسة للمنهج المتّبع، وذلك ظاهر فيما كتب شارل لانغلو⁽²⁾.

صار التاريخ يصبغ بالعلمية في القرن التاسع عشر، ويعرّف على أنّه علم الماضي، ولم يكن يعرف إلاّ الوثائق⁽³⁾ منهجا ومستندا، وفرض عليه التوجّه إلى العلمية ألاّ يجرّ إلاّ ما نطقت به الوثائق، ولا ينجح إلى صناعة الحكاية⁽⁴⁾.

وصار جلب الوثائق أكبر اهتمامات المؤرّخين⁽⁵⁾، حتّى نزاع البعض أن غلب عليه شره تجميع الوثائق دون استخلاص التاريخ منها⁽⁶⁾.

"إنّ المؤرّخين كثير و الممارسة للوثائق يكتّون من الاحترام للأسلوب الوثائقي ما يجدوهم أحيانا إلى اعتباره الأسلوب التاريخي الوحيد"⁽⁷⁾. ولكن "ما من وثيقة بوسعها أن تجربنا أكثر ممّا أراد لها محرّرها"⁽⁸⁾، لذلك يجب أن "تخضع لصنع المؤرّخ"⁽⁹⁾، فهو "خبير الزمن الماضي"⁽¹⁾.

(1) Jean (Walch): Romantisme et positivisme: une rupture épistémologique dans l'historiographie, in: Romantisme, Paris 1978, V 08, No 21, p 162.

(2) Charles (V. Langlois): Société française au XIIIe siècle, d'après un roman d'aventure, Librairie Hachette et Cie, Paris 1904, pp II-X.

(3) François (Hartog): Le témoin et l'historien, in: Divinatio, No 13, Sofia, Bulgaria 2001, p 35.

(4) Louis (Bourdeau): "L'histoire et les historiens", Librairie Germer Baillièrre et Cie, Paris 1888, p 176.

(5) Louis (Halphen): L'histoire en France depuis cent ans , Librairie Armand Colin, Paris 1914, p 57.

(6) Henri (Berr): L'histoire traditionnelle et la synthèse historique, Librairie Félix Alcan, Paris 1921, p 05.

(7) هيوغ أتكّن: دراسة التاريخ وعلاقتها بالعلوم الاجتماعية، ترجمة محمود زايد، ط 02، دار العلم للملايين، بيروت 1982 ص 147.

(8) إدوار كار: ما هو التاريخ، ترجمة ماهر الكيالي وبيار عقل، ط 03، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1986، ص 16.

(9) نفسه، ص 17.

وسلكت مدرسة الحوليات التي ظهرت بواورها في العشرينيات من القرن الماضي عبر مجلة "La Revue de Synthèse"⁽²⁾، حيث تكوّنت اتّجاهها يخالف اتّجاه المدرسة الوضعية⁽³⁾ التي بالغت في اعتبار الوثائق، ثمّ ما لبث هذا الاتّجاه أن أسّس لنفسه مجلة خاصّة، سمّيت "Annales d'histoire économique et sociale" سنة 1929⁽⁴⁾.

ينهد الاتّجاه الجديد إلى تجاوز الحدث إلى زحزحة نظرتة من الاهتمام بالحياة السياسية إلى الحركة الاقتصادية، وإلى المنظومة الاجتماعية، والسيكولوجية الجماعية⁽⁵⁾، وإخراج التاريخ من أخلدود النمطية⁽⁶⁾، وتقريبه من العلوم الإنسانية الأخرى⁽⁷⁾. وكان يرى أن يسرع في إخراج التاريخ من عزلته، وفتحه على المساءلات، ومناهج العلوم الاجتماعية الأخرى⁽⁸⁾.

ولكنّ هذا التوسّع في مفهومية التاريخ من خلال ميادينته التي يجب على المؤرّخ أن يجاوها، لا ينفي أهميّة الوثيقة في صناعة المؤرّخ، ولكن يقتضي مفهوما جديدا للوثيقة، وتحديدًا آخر في وظيفتها، لذلك كان من مفاهيمها أنّ كلّ ما يومئ إلى الماضي فهو وثيقة، وأنّ التاريخ في عمل المؤرّخ هو كلّ ما نتج من مفاهيم على محورية الوثيقة⁽⁹⁾. فتكون الوثيقة الأصل ولكن بمعنى الاتّصال بالماضي من خلال إيّاءاتها، ويكون فكر

(1) غي توليبه وجان تولار: مهنة المؤرّخ، ترجمة عادل العوّا، ط 01، عويدات للنشر والطباعة، بيروت 2001، ص 27.

(2) أنشئت سنة 1900 من طرف Henri Berr.

(3) Guy (Bourdé). Hervé (Martin): Les écoles historiques, Editions du Seuil, Paris 1983, p 171.

(4) Jacques (Le Goff) (direction): La nouvelle histoire, Editions Complexe, Paris 1978, p 39.

(5) Guy (Bourdé). Hervé (Martin), op, cit, p 171.

(6) Jacques (Le Goff) (direction), op, cit, p 39.

(7) Guy (Bourdé). Hervé (Martin), op, cit, p 171.

(8) Jaques (Revel) : Histoire et sciences sociales : les paradigmes des Annales, in : A E S C, Paris 1979, V 34, No 06, p 1363.

(9) Jacques (Le Goff) (direction), op, cit, p 38.

المؤرخ هو التحرير العام للتاريخ. وخلاصة كل ذلك في فكرنا أن "التاريخ وثيقة، والوثيقة تاريخ" (1).

2- تنوع وثائق الكتابة التاريخية:

كان لتجديد مفاهيم للتاريخ الذي طرحته مدرسة الحوليات أن تغير مفهوم الوثائق، فبعضها تكون بقصد، وبعضها تكون بالتخصيص والإسناد في صناعة المؤرخ². وهكذا اتسع مدلولها لتشمل كل ما دلّ على الماضي بنص صريح، أو بما أوماً إليه من خلال متعلق به يحيل المؤرخ إلى اكتشاف الحدث من خلاله بذهنية تمتلك القدرة على هندسة الوقائع بخبرة المقارنات والإسقاطات. يقول المؤرخ مارو (Marrou) في توصيفه للوثيقة: "هي كل مصدر معلومة (3) استقصى منه ذهن المؤرخ شيئاً من أجل معرفة الماضي الإنساني... وأنه من المستحيل القول من أين تبدأ أو أين تنتهي الوثيقة، وشيئاً فشيئاً يتوسع المفهوم لينتهي باحتضان نصوص، آثار، ملاحظات من كل نوع" (4).

ولما كان التاريخ هو علم الإنسان بجملة علاقاته الزمكانية، صارت فروعه كثيرة إذ بسطت على كل ما ينتابه من انفعال بالمحيطيات، أو ما يصدر عنه من فعل لتحقيق معاني وجوده. والأثر الناتج عن العمليتين يكون الظواهر التي يرصدها التاريخ مجملة في الخط الزمني لحياته، ويرصدها علم الاجتماع مفردة ينطلق منها لتحديدات السلوك الاجتماعي الذي تجري فيه الحركة الإنسانية، وترصدها الأنثروبولوجيا في التعمّص الفكري والوجداني المشكل للثقافة والتصورات.

(1) طاهر بن علي: المرجع السابق، ص 110.

(2) Viviane (Couzinet): Le document: leçon d'histoire, leçon de méthode, in : Communication et langages, Paris 2004, V 140, No 01, p 19.

(3) اختلفت الآراء في تحديد وتوصيف مصادر المعلومة، وذلك باختلاف العصور، والمناهج، وقيمة المعلومة المنحوتة من النص، مهما كانت صفته السردية وغير السردية. أنظر في هذا المعنى:

George (Husband Baird): Historical Evidence, Clarendon Press, Oxford 1909, pp 29-159.

(4) Henri-Irénée (Marrou): De la connaissance historique, Editions du Seuil, Paris 1954, p 73.

لذلك تنوّعت مناحي الكتابة التاريخية في العصر الحديث؛ لتشمل كلّ النشاطات التي مارسها الإنسان على المستوى الفردي والجماعي. وباجتماعها يتحدّد معنى التاريخ؛ أي كلّ الشأن الذي كان عليه وصار إلينا بأثره، فدلّنا على معرفته. وبتنوّع الكتابة التاريخية تنوّعت الوثائق المعتمدة في استدلالاتها على وقوع الحوادث. وأصبح المؤرّخ يبحث في كلّ شيء يجعل بينه وبين إنسان الماضي صلة. ولم تعد دواوين التاريخ وآثار الأركيولوجيا الأدلة الوحيدة في إثبات الخبر، أو إعادة بناء الحدث.

وانتصبت في عين المؤرّخ نصوص جديدة لم يكن له عهد باستثمارها، ولا عادة بإشهادها، وتفتّح بحثه الوثائقي على أصناف كثيرة لم تكتب لغرض التاريخ إلا بعلاقة الوجودية الكامنة في الفعل الإنساني⁽¹⁾، وعليها بنى المؤرّخ توجّهات البحث فيها.

وقد أورد المؤرّخون في نصوصهم تنوّع مصادر التوثيق لديهم، فعند بعضهم هي "الأوراق الرسمية على وجه الخصوص؛ كالرسائل، والسجلات، والمنشورات، والأحكام القضائية، والنظم المالية، والفتاوى الدينية، والمعاهدات السياسية، والمراسيم، وعهود التولية لكبار الموظفين من أمراء، ووزراء، وولاة، وقادة"⁽²⁾. وهي عند آخر "مقالات، وأفكار، وأشعار، وسجلات، وتقارير"⁽³⁾، وصحف معتمدة، ومذكّرات، ومراسلات رسمية، ومذكّرات خاصّة"⁽⁴⁾. وتشمل عند غيرهم

(1) وهي في نظرنا المعنى الجامع الحاصل في التاريخ المهيمن على العلوم الإنسانية والاجتماعية كلّها.
(2) مجاهد توفيق الجندي: الوثائق مصدر أصيل لدراسة التاريخ والحضارة الإسلامية: وثائق الأزهر في التاريخ الحديث والمعاصر، ندوة أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب، منشورات الاتحاد، القاهرة 1998، ص 539.

(3) منها التقارير الصادرة عن البعثات والجمعيات، وفيها من الجزئي الدقيق والمفرد البسيط الذي لا تصل إليه مسوحات الكتابات التاريخية. أنظر:

سهيل صابان: تقارير أحمد مختار باشا العثمانية عن الجزيرة العربية، الدارة، ع 02، س 29، الرياض 2003، ص 175. وجيريت بيننجر: رسائل أعضاء الإرسالية التبشيرية الأمريكية في الخليج. التقرير الأول: استئناف العمل في الكويت، ترجمة تركي ابن فهد بن عبد الله بن عبد الرحمان آل سعود، الدارة، ع 03، س 33، الرياض 2007، ص 204.

(4) عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، د ط، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999، ص 72.

"القبور"⁽¹⁾، والأبنية، والأسلحة، والأدوات، والنقود⁽²⁾، والملابس، والسجلات الرسمية⁽³⁾، والمعاهدات، والاتفاقيات، والوثائق السياسية، وكلها مادية. كما تشمل الوثيقة الروايات، والقصص، والملاحم، والأساطير، والأقوال، والحكم⁽⁴⁾، وهي شفوية مروية، أو مكتوبة، بالإضافة إلى الوثائق الكتابية أو اليدوية، مثل التصاوير والمشاهد التاريخية، وبعض الحفلات، والكتابات⁽⁵⁾، والنقوش⁽⁶⁾.

ولا يمكننا أن نحصي أنواع الوثائق المعتمدة في الكتابات التاريخية في مقال قليل الصفحات، لذلك نعمل على ذكر بعضها، على أن تكون أنموذجا يحيل الفكر إلى تصورات صحيحة إلى كل ما يستطيع المؤرخ اعتماده أصلا في إثبات الوقائع وتحرير

(1) تعدّ الكتابات على القبور "شاهدا موثوقا بدلالاته على مستوى الحياة الاقتصادية والعلمية للفترة التي كتب فيها الشاهد، من خلال نوعية الخطّ وجماله وحسن تنظيم عباراته... وتكشف... بعض عادات المجتمعات في دفن الموتى وتقديم العزاء". أنظر:

محمد بن هزاع الشهري: شاهد قبر من أول القرن السابع الهجري لإمام المقام الشافعي بالمسجد الحرام (598-604هـ)، الدارة،

ع 03، س 31، الرياض 2005، ص 209.

(2) تعدّ النقود "مصدرا مهما من مصادر التاريخ والحضارة... فهي وثائق صحيحة يصعب الطعن في قيمتها... فهي شارات الملك والسلطان... وهي مرآة صادقة للعصر الذي ضربت فيه، تعكس جميع أحواله السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والجغرافية وغيرها". أنظر:

عاطف منصور رمضان: مسكوكة ذهبية تذكارية بمناسبة تأسيس دولة بني تغلق بالهند، الدارة، ع 01، س 31، الرياض 2005، ص 135.

(3) ومنها سجلات المحاكم التي تمثل "ذخيرة طيبة للوقوف على معلومات قيمة تدخل في عدّة مجالات". أنظر: جمعة محمود الدريقي: دراسة حجج الوقف: وثيقة الزاوية المدنية في مصراتة نموذجا، آفاق الثقافة والتراث، ع 31، س 08، دبي رجب 1421هـ/أكتوبر 2000، ص 06.

(4) ومنها الأمثال الشعبية، التي تعدّ "مادة غنية للبحث، وتكمن فيها إلى حدّ كبير- صور أصيلة عن واقع الناس وثقافتهم وعاداتهم". أنظر:

مسعود بن عبد الله السرحان: شواهد العمارة التقليدية في الأمثال الشعبية بمنطقة نجد، الدارة، ع 03، س 30، الرياض 2004، ص 53.

(5) الكتابات مدوّنة تاريخي يحمل كثيرا من الذي لا تتسع له مدوّنات التاريخ العام. أنظر مثال ذلك في:

Solange (Ory) : Aspects religieux des textes épigraphiques du début de l'Islam, in : Revue du monde musulman et de la Méditerranée, Paris 1990, No 58, pp 30-39.

(6) شاكر محمود عبد المنعم: "الوثائق... وأهميتها في دراسة و تدريس التاريخ"، المؤرخ العربي، ع 55، بغداد 1418هـ/ 1997م، ص 33.

النص في ذلك.

نذكر منها الكناشات⁽¹⁾ والتقايد التي جمعت فيها كل الحوادث والوقائع المتعلقة بأصحابها والمرتبطة بمحيطهم الشخصي والعائلي⁽²⁾. جمعت بغرض المتعة الذاتية، أو انشغال الذهن بجزئيات الحياة في اللحظة المرصودة. وقد "كانت بالنسبة لأصحابها تلعب دور المفكرة أو كراس لتسجيل الاهتمامات الآنية والعارضة"⁽³⁾.

ومنها نصوص الشعر الذي يحمل من "قيمة الشهادة، وندرة التجربة"⁽⁴⁾، ما يجعل التاريخ ينتظمه وثيقة للحدث، وشهادة على الواقعة. إذ يأتي محموله "تارة مدعماً لما جاء في المصادر التاريخية واضحاً، وحيناً مدققاً لما جاء بها عامّاً، وطوراً ثالثاً مضيفاً أشياء قد لا يهتم بها المؤرخون عادة"⁽⁵⁾.

ومنها كتب الفقه التي يلتقط منها المؤرخ الكثير من ظواهر الحياة، وحركة الفعل الإنساني بمستوياتها النفسية والاجتماعية، "لارتباط مرجعيتها الأساسية، وهي الفقه، بالمجتمع، تتمثل فيما تضمّنته من معلومات اجتماعية، واقتصادية، وحضارية، تلقي أضواء على غير ما جانب من المجتمع، على حياة مؤلفيها، في هذا البلد أو ذاك، خلال هذا العصر أو ذاك"⁽⁶⁾. كل ذلك لما انعكست "على ما عاجله الفقهاء من أفضية كانت

(1) ويسمّيها البعض بالكنايات الذاتية، ولها أسامي كثيرة منها: كَنَاش، وزمام، وبطاقة، ومدكرة، وتذكرة، وكشكول، ودفتر، وتقيد، ومقيدة، وكراس، وكراسة. أنظر:

أحمد السعيد: سوس التاريخ والثقافة والمجتمع، د ط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2011، ص 139.

(2) ومنها الوثائق الخاصة والأوراق الخاصة، وقد عدّت من أهمّ مصادر التأريخ والحضارة. أنظر:

مي بنت عبد العزيز العيسى: من الأوراق الخاصة للمؤرخ ابن عيسى، الدارة، ع 03، ص 29، الرياض 2003، ص 182. وعبد الرحمان بن عبد الله الشقيّر: وثيقة وقف نجدية لسليمان بت عبد الله بن عثمان بتاريخ 1244هـ، الدارة، ع 04، ص 29، الرياض 2003، ص 187.

(3) محمد المنصور: "مصدر جديد لدراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب عند مطلع القرن التاسع عشر: كَنَاشَة المشاط"، متنوّعات محمّد حجي، ط 01، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998، ص 46.

(4) حسناء الطرابلسي بوزينة: استشعار نهاية الأندلس في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي، دراسات أندلسية، ع 05، تونس جمادى الثانية 1411هـ/ جانفي 1990، ص 38.

(5) جمعة شيخة: القيمة الوثائقية لديوان ابن الأبار، دراسات أندلسية، ع 02، تونس ذو القعدة 1409هـ/ جوان 1989، ص 39.

(6) حسن الواركلي: إشارات اجتماعية واقتصادية عن مدينة (المرية) من خلال مصدر فقهي، بحوث الملتقى الثاني للعلوم التاريخية، مدريد 1992، ص 163.

تحدث للناس، ومسائل تعرض لهم، صور من حياتهم الاجتماعية، خاصة وعامة، ليست تخلو من دلالة على العقلية السائدة، والذوق المتحكم في نسج خيوط وقائعهم اليومية⁽¹⁾.

وأهم نصوص الفقه نصوص النوازل، فهي "من المصادر الأصلية القيّمة، لما تتضمنه من مادة غنيّة في مجال الدراسات التاريخية والحضارية. فالنوازل قضايا رفعت من مختلف فئات المجتمع إلى القضاة ورجال الفتوى للنظر فيها، وهي عادة ما تذكر القضية أو النازلة كما حدثت بأشخاصها ووقائعها واسم القاضي أو المفتي الذي رفعت إليه وأحيانا تاريخ وقوع النازلة"⁽²⁾.

وهي "مصدر زاهر لدراسة الحياة الاجتماعية بمختلف أوجهها من العادات والتقاليد، فالعبادات والعقليات إلى الممارسات والمعاملات التجارية وغيرها"⁽³⁾، وبها يمكن "التعرّف على مجتمعاتنا من الداخل من خلال وثائقها التي استلزمت الرجوع إلى القاضي أو المفتي"⁽⁴⁾. وذلك من خلال "حصيلة خبرة المفتي أو القاضي النظرية منقولة إلى مواقع العمل في المجتمع تطبيقا وتنفيذا في البيوت والأسواق والطرق وبيوت المال، وقضايا التجارة والصناعة والزراعة والملاحة، وميادين القتال والجهاد، إلى غير ذلك من مناحي الحياة اليومية"⁽⁵⁾.

إنّها "خطاب المجتمع حول نفسه"⁽⁶⁾، وفيها يمارس المؤرّخ "أركيولوجيا الحياة

(1) نفسه، ص 169.

(2) كمال السيّد أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي - من خلال نوازل الونشريسي-، د ط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1997، ص 08.

(3) فاطمة الزهراء قشّي: الحياة الفكرية في قسنطينة خلال العهد العثماني مساهمة عائلة الفكّون - "أو عرض كتاب النوازل"، المجلة التاريخية المغربية، ع 57-58، تونس جويلية 1990، ص 319.

(4) نفسه، ص 319.

(5) عبد الواحد ذنون طه: كتب الفتاوى مصدرا للتاريخ الأندلسي، المجلة العربية للثقافة، ع 27، تونس 1994، ص 95.

(6) Jacques (Berque): Ulémas: fondateurs insurgés du Maghreb XVIIe siècle, Editions Sindbad, Paris 1982.

اليومية"⁽¹⁾، وبه اعتمدها المؤرخون وثائق، و"أخذوا منها معلومات حول قضايا زمنية مضبوطة ومحدودة"⁽²⁾. وكلّهم "اعتبروا كتب النوازل كمصادر للتاريخ"⁽³⁾، ومصادر للخبر من خلالها يحققون "فرصة للخروج من دائرة المعلومات الباهتة التي تقدّمها المصادر الإخبارية"⁽⁴⁾.

3- كتب الرحلة مصادر للتوثيق في الكتابة التاريخية حسب تمثيلات الباحثين:

الرحلة أصيلة في حركة الإنسان المكانية، فقد كانت استجابة للتحدي الذي فرضته الجغرافيا على حركة الإنسان، فحاجاته موزّعة على المعمورة، ومتطلّبات الوجود تقتضي أن يلبي هذه المتطلّبات⁽⁵⁾، ولأنّ الجغرافيا مهما كانت لا يمكنها أن تفي بكلّ حاجاته، فهي ذات تغيّرات طبيعية تؤثر على أسباب وجوده⁽⁶⁾، وغالبا عن كلّ طموحاته. فقد باشر الرحلة ليتحرّر من قيد المكان، ويتعدّى حدود الجغرافيا، ويكون له صورة انطولوجية خاصّة⁽⁷⁾.

فمنذ القدم استهواه السفر إلى الآخر جغرافيا، واحتواه الفضول لمعرفة الآفاق بما

(1) محمد دحمان: المجتمع الصحراوي من خلال النوازل الفقهية، دعوة الحق، ع 400، الرباط رجب 1432هـ/ يونيو 2011، ص 59.

(2) محمد مزين: حصيلة استعمال كتب النوازل الفقهية في الكتابة التاريخية المغربية، ندوة البحث في تاريخ المغرب. حصيلة وتقوم، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الرباط 1989، ص 75.

(3) محمد مزين: مساهمة علماء مكناس وفقهائها في حلّ مشاكل المجتمع المغربي عبر كتب النوازل الفقهية خلال بداية العصر الحديث، أعمال ندوة الحاضرة الإسماعيلية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بكناس، مكناس 1988، ص 254.

(4) عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس الإسلامية، دراسات أندلسية، ع 14، تونس محرم 1416هـ/ جوان 1995، ص 47.

(5) دوافعها كثيرة ومتنوعة تتوزّع بين النفسي الذاتي، والاجتماعي، والعلمي، والسياسي، والاقتصادي. انظر: الحسن الشاهدي: أدب الرحلة في المغرب في العصر المريني، د ط، منشورات عكاظ، الرباط، د ت، ج 01، صفحات 63-106.

(6) صلاح الدين علي الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، ط 02، مطبعة رمضان وأولاده، الإسكندرية، مصر 1999، ص 22.

(7) لعلّ من هذا القبيل صار لكلّ رحلة جنس. انظر:

محمد حاج صدوق: جنس الرحلة، ترجمة المبارك الغوسي، في الرواية والسفر تقاطعات التخيلي والتسجيلي، تنسيق شعيب حليفي، منشورات مختبر السرديات، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك الدار البيضاء، المغرب 2015، صفحات 195-214.

تحمل من عجائب الكون، أو من غرائب الإنسان. وفيها يمارس الإنسان دورين متلازمين؛ السائح في الزمن الجغرافي، والمدون للزمن الإنساني. إنها تعبير عن الذات⁽¹⁾ بنقلها إلى أماكن بعيدة⁽²⁾، بعد آخر نفسي. إنها "تمنح الإجابة على السؤال الذي يطرحه الإنسان كل يوم حول: وجوده الإنساني، مكانه في الكون⁽³⁾، مصيره"⁽⁴⁾.

وفي كلام المسعودي تعبير جليل عن النزعة المعرفية في حركة الرحلة، إذ يقول في ذلك: "وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نمي إليه ما الأخبار عن إقليمه، كمن قسم عمره على قطع الأقطار، وورّع أيامه بين تقاذف الأسفار، واستخراج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمّنه"⁽⁵⁾.

وبالمدون للزمن الإنساني يصبح للرحلة طابعها الأدبي، فهي "صنف تألّيفي يختصّ بتتبع الراحل في لحظات تنقله من أمكنة وأزمنة معيّنتين، فيتمّ رصد الراحل لذكرياته أثناء هذا التنقل في وصفه للمسالك والممالك، في الحديث عن الطرق والمجتمعات التي يتصل بها والظروف المحيطة بها أثناء ذلك، وما يلاحظه من وقائع وأحداث قد تدعو إلى تسجيلها والكتابة عليها، مع عرض أنشطته المختلفة الخاصة به أثناء هذه الرحلة"⁽⁶⁾.

و"يعدّ أدب الرحلة أحد الروافد المهمّة في التراث الثقافي... فالرحلة مغامرة

(1) عبد المجيد القدوري: الرحلة المغربية والرحلة الأوربية تعبير عن الذات واختلاف في المنطق، في متنوعات محمد حجي، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، صفحات 350-360.

(2) Noel Coulet: Introduction «S'en divers voyages n'est mis...», in : Actes des congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public. 26e congrès, Aubazine, 1996. p 11.

(3) هذا المعنى وإن كان في الرحلة الدينية أصلاً، إلا أنّه يشمل أسئلة كثيرة تتوّعها اتجاهات النفس والفكر.

(4) Simon (Vieme): Le voyage initiatique, in: Romantisme, Paris 1972, No 04, p 38.

(5) علي بن الحسين أبو الحسن المسعودي (ت 346هـ / 957م): مروج الذهب ومعدن الجواهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 05، دار الرشاد، بيروت 1393هـ / 1973م، ج 01، ص 12.

(6) عبد الله المراتب الترغي: الرحلة الفهرسية نموذج للتواصل داخل العالم الإسلامي رحلة أبي سالم العياشي "ماء الموائد" نموذجاً، في السفر في العالم العربي الإسلامي التواصل والحدّات، تنسيق عبد الرحمان المودن وعبد الرحيم بنحادة، ط 01، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 16.

استكشافية قصد معرفة ثقافة وحضارة الآخر⁽¹⁾. فهي بذلك "خطاب وصفي، لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين"⁽²⁾. ولكن بشرط أن تكون رحلة حقيقية واقعية.

والرحلات "عمل أدبي"⁽³⁾ يقوم على استعادة أحداث ذات مغزى، بعد امتزاجها بأصباغ الذاكرة والشعور⁽⁴⁾. إنها الخطاب الذي "يواكب انتقال الرحالة في أماكن متعددة ومختلفة، واصفا إياها جغرافيا وعمرانيا واجتماعيا وبشريا"⁽⁵⁾. وبذلك "تمثل الرحلة أهمية قصوى في تصوير حياة العصر الذي أنجزت فيه، بما تقدّمه من وصف لقضايا حضارية وجغرافية واقتصادية وعسكرية وسياسية وتاريخية"⁽⁶⁾.

وبذلك تكون الرحلة نصّا في اتجاه التاريخ بمعايير تقييد الفعل الزمني في نصّ مدوّن⁽⁷⁾، وتتلخص القراءة فيها إلى المعنى التاريخي المتخفي خلف جماليات الفنّ السردى والإبداع الأدبي، وهكذا "يجد المرء نفسه قبالة المؤرّخ والفنّان معا"⁽⁸⁾.

فهي "لا تمنح توصيفا للطريق السلوك فحسب، ولكن تتبعه بملاحظات تاريخية، سياسية، اقتصادية، إثنية"⁽¹⁾. فتحمل بذلك "مادة وفيرة ممّا يهمّ المؤرّخ

(1) سمير الأزهري: الثابت والمتحوّل في الرحلة إلى أمريكا، في الرحلة: مغامرة أم مشروع، تنسيق رشيد الحضري وآخرين، ط 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 165.
(2) سعيد يقطين: السرد العربي مفاهيم وتحليلات، ط 01، دار الأمان، الرباط 1433هـ / 2012م، ص 171.

(3) كثيرون يتيهون بهذا التوصيف، فيجعلوا الرحلة في تصنيف الأدب صرفا، ويدفعونها عن مجالات المعارف الأخرى. لذلك يجب أن يعلم أنّ المقصود بالعمل الأدبي هو العمل التحريري الذي ينشئ نصّا، ويكون سردا.

(4) إسماعيل زردومي: فنّ الرحلة في الأدب المغربي القديم، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الله العشي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، الموسم الجامعي 1426هـ / 2005م، ص 37.

(5) جميلة روباخ: أدب الرحلة في المغرب العربي، رسالة دكتوراه، إشراف أمحمد بن لخضر فورار، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، السنة الجامعية 2014-2015، ص 08.

(6) نعيمة الحضري: الصورة من خلال الكتابات الرحيلية، في الرحلة: مغامرة أم مشروع، تنسيق رشيد الحضري وآخرين، ط 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسك، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 103.

(7) توجهات التعريف للتاريخ كثيرة، ولا تحصى. والمؤرّخ اليقظ باستمولوجية المنحى المعرفي من خلال المفهومية يجعل للتاريخ تعريفات متنوعة وتصنيفات كثيرة. وهذا الذي ذكرناه من تعريفنا.

(8) عماد الدين خليل: من أدب الرحلات، د ط، دار ابن كثير، بيروت 1426هـ / 2005م، ص 06.

والجغرافيا وعلماء الاجتماع والإقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير⁽²⁾. وهي "تحمل الكثير من المعلومات والمعطيات المفصلة مما يجعلها مصدرا تاريخيا لا غنى عنه لفهم بعض الأبعاد التاريخية لفترة"⁽³⁾ من الفترات. فنصّها هو "موضوعيا بمثابة وثيقة تاريخية وجغرافية لبلد معين خلال فترة زمنية محدّدة"⁽⁴⁾.

وقد تمثّلت الذهنية العلمية الرحلة وفق الميادين العلمية، والتخصّصات المنهجية⁽⁵⁾، واستلهم كلّ توجه معرفي من الرحلة ما يخدم تأسيساته، وينمي بناءه. ولعلّ نصّ الدكتور عماد الدين خليل يبرز موقعية الرحلة من قوى الإدراك في الذات المتفاعلة بالمعرفة مع الظواهر النصّية، فيقول: "فأدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا.. كما أنّه ليس قصّة قصيرة، أو رواية، أو قصيدة شعر، وإنّما هو هذا وذاك، ومن ثمّ يكتسب خصائصه المتميّزة وطعمه العذب... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرّخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع، وسبر غورها العميق"⁽⁶⁾.

الرحلة تاريخ لما أهمله التاريخ⁽⁷⁾ وفق عبد الهادي التازي، وذلك لارتباطها بالاتصال المباشر بالعلوم الإنسانية الأخرى، فهي "تمتّ كثيرا بالتقاليد والعادات،

(1) André Laronde: Quelques sites de la Libye antique et Ibn Battuta, in : Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 147e année, N. 1, Paris 2003, p 197.

(2) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط 02، دار الأندلس، بيروت 1403هـ / 1983م، ص 06.

(3) كريم بجيت: الفضاء اليهودي والتعددية الثقافية في المغرب من خلال رحلة صامويل رومانيلي (1792)، في الرحلة: مغامرة أم مشروع، تنسيق رشيد الحضري وآخرين، ط 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 77.

(4) المصطفى مولاي رشيد: الرحلات خلال العصر القديم، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع 24، الرباط 2001، ص 183.

(5) خالد سرتي: رحلة ابن جبير: من السعي إلى الحجّ إلى الدعوة إلى الجهاد، في الرحلة: مغامرة أم مشروع، تنسيق رشيد الحضري وآخرين، ط 01، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 45.

(6) عماد الدين خليل، المصدر السابق، ص 06.

(7) عبد الهادي التازي: الرحلة كمصدر لتاريخ العلاقات الدولية، المناهل ع 60، الرباط 2000، ص 45.

وتعنى بالفوارق بين الشعوب والمجتمعات، وتنصبّ على وصف بعض ظواهر اللغات واللهجات. وقد تنصّدّى لبعض قيم التربية والأخلاق، أو لعلاقة الحكّام بالمحكومين ممّا يجعلها مجالا خصبا لكثير من الدراسات الأنثروبولوجية⁽¹⁾ التي يعتمدونها التاريخ للتفهّم والتفسير.

أو تحوي معلومات جغرافية دقيقة، مثل "الشبكة المائية وخاصة النهرية منها... واستعمالها كوسيلة رصد لمجالات جغرافية شاسعة، وتوطن لبعض الجماعات البشرية"⁽²⁾، وكلّ ذلك يغني التاريخ بالمعطى الجغرافي الذي يؤسّس للمعنى الوجودي في حياة الإنسان.

و"التاريخ والجغرافيا توأمان لا غنى لأحدهما عن الآخر أثناء انتشارهما في جسد الرحلة... وإذا كان الرّحالة، جغرافيا، يستوحي المدوّنة الخرائطية، فإنّه في الوقت ذاته يستوحي المدوّنة التاريخية أعلاما وأزمنة وتواريخ أمم وأفراد ومظاهر مختلفة، معيدا- الرحالة- صياغة كلّ ذلك في "تاريخ جديد"، دون أن تكون الرحلة نسخا للتاريخ أو إعادة إنتاجه"⁽³⁾.

وعموما فإنّ كتب الرحلة وثائق خطيرة في اكتشاف الجغرافيا بما تحوز من إنسانية تحوّها إلى كتلة وجودية لها خصائصها، ممّا يجعلها متفتّحة على البحث التاريخي عامّة، والبحث الأنثروبولوجي والاجتماعي خاصّة. إنّها تمنحنا ما لا تبوح به الوثائق، والذي يجب أن نعالج كثيرا من المكّدسات الأرشيفية من أجل الحصول على نفيس منه⁽⁴⁾.

(1) عبد العزيز الحلوي: الأحوال لاجتماعية لسكّان الصحراء الكبرى والسودان الغربي من خلال بعض كتب الرحلات، في التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، منشورات كلّية الدعوة، طرابلس، ليبيا 1999، ص 426.

(2) عبد الرزّاق العسري: قراءة في طوبونيميا أنهار الواجهة الأطلسية من خلال ثلاث رحلات: حنون وسلاكس وبوليت، بحوث، ع 10، المحمّدية، المغرب 2002، ص 27.

(3) عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، ط 01، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1417هـ/ 1996م، ص 13.

(4) Josiane Teyssot: Voyages et peregrinations d'auvergnats pendant la guerre de Cent Ans, in : Actes des congrès de la société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur public. 26e congrès, Aubazine, 1996. p 63.

وفي تمثلنا تحتل الرحلة في كثير من نصوصها، مستحدثات المعارف¹، وأوليات الأصول التاريخية لكثير من الإثنيات في حيزها الجغرافي الممتد وراء التماس مع كتابات المؤرخين الكلاسيكيين، حيث الخبر والرواية من منغلقات الحياة⁽²⁾، ومستودعات الجغرافيا⁽³⁾.

وبمحاوره الجغرافيا تستدعي الرحلة خصوصيات الأمم والشعوب⁽⁴⁾ إلى منصوص⁽⁵⁾ يحقق الوعي بالحدث بمعنى كوني شامل. كما تعانق بمنصوصها الخصوصيات الإثنية ليتحقق الوعي بالحدث بمعنى أنطولوجي كينوني⁽⁶⁾، فيتلبس محمولها بالحضور الزمني الكامل المتعمق بالوجود الإنساني، و"يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الإنسانية"⁽⁷⁾.

4- التوجّسات المنهجية والمعرفية في احتياطية استثمار نصوص الرحلة في الوثيق:

(1) Numa (Broc) : Voyages et géographie, in : Revue d'histoire des sciences et de leurs applications, Paris 1969, V 22, No 02, p 141.

(2) أنظر هذه المعاني في:

Faouzia (Belhachemi): Nouvelle interprétation du processus de peuplement dans le massif du Hoggar à partir des géographes arabes, in: Revue de géographie alpine, Grenoble, France 1991, T 79, No 01, p 144.

(3) Fred (T. Lewicki): A Propos du Nom De l'Oasis de Koufra Chez Les Géographes Arabes du XIe et du XIIe Siècle, in: The Journal of African History, Cambridge 1965, V 06, No 03, p 295.

(4) بعض الرحلات تأخذ هذا المعنى كلياً. أنظر:

أحمد بن فضلان: رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهّان، د ط، مطبوعات الجمع العلمي العربي بدمشق، دمشق، د ت.

(5) وهذا هو معنى التاريخ في منظوري، حيث يتحوّل الفعل الزمني وحركة الحياة إلى منصوص شفهي أو كتابي، متعلّقه زمان متغايران.

(6) الناصر اليعلوطي: المأثورات الشعبية في تونس كما وردت في بعض كتب الرحالة الأوربيين، مجلة الحياة الثقافية، ع 192، تونس أبريل 2008، ص 81.

(7) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: د ط، دار الرائد العربي، بيروت 1401هـ/ 1981م، ص 179.

ما يميّز العلمية في الدراسات التاريخية توجّهاًتها المنهجية، فهي التي جعلتها على حافة التماثل مع العلوم الأخرى بل هي ما أعطى المصدقية للتاريخ مُنشأ المعرفة العلمية التي قعدت عليها العلوم الإنسانية والاجتماعية تقعيدها، وأسست عليها نظرياتها.

ومن هذه التوجّهاًت مبدأ الشكّ في الشهادات على الوقائع والأحداث. فليس هناك ما يقدّسه التاريخ إلّا ما تحقّق من صدقه، وصدق في تحقيقه. فكلّ وثيقة أو شهادة أو أثر أو رمز إلّا وله نصيبه من النقد لتثبت براءته من الزيف والكذب والمخادعة.

والرحلة وإن كانت إحدى مآرز المؤرّخ في إنشاء وثائقه في مرحلة البحث التوثيقي، تمنحه من النصوص ما سكتت عنه كتب التاريخ، أو ما أخفاه الزمن، أو ما وارته الجغرافيا، أو ما ضنّت به الأفتدة كلّاً أو جهلاً أو استثناء، فإنّها بحكم المنهج خاضعة للمساءلة صحّتها وصدقها.

ورغم "أنّها تجربة عميقة ذات اتّصال ثلاثي الأبعاد، الطبيعي عن طريق الجغرافيا، والبشري عن طريق الناس، والاجتماعي عن طريق الحياة"⁽¹⁾، وفي محمولها يصير الإنسان موضوع دراسة شاملة بحيثيات متعدّدة، ومتغيّرة بعدما كان أداة لهذه الدراسة⁽²⁾. وكونها السرديات التي يتعلّق بزمنها كلّ مدهش، ورائع، ونادر، وغريب⁽³⁾. وبه مضمونا، وبها متضمّنا - حيث تطلّ على كلّ جانب من جوانب

(1) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط 02، دار الأندلس، بيروت 1403هـ/ 1983م، ص 07.

(2) Miquel (André): Rome chez les géographes arabes, in: Comptes-rendus des séances de l'Académie des inscriptions et belles-lettres, Paris 1975, Année 118, No 02, p 281.

(3) Christine(Mazzoli-Guintard): Le royaume de Grenade au milieu du XIVe siècle: quelques données sur les formes de peuplement à travers le voyage d'Ibn Battuta, in: A S H M E S P, Aubazine, France 1996, No 26, p 145.

المعرفة- يحدث المؤرخ المقارنات والمقاييسات. وتصبح نصا صحيح المستند-نسبيا-
(1) للتمثيلات الثقافية(2) من خلال الجغرافيا"(3).

رغم ما يتميز به بعض الرحالة من "حسّ الملاحظة الذي يشهد عليه تنوع المعلومات التي يقدمها عن البلدان التي ارتداها، وعن شعوبها. علاوة على موهبته في "وصف" المناظر والحواضر والاحتفالات الدينية، والمواكب الرسمية والقوافل"(4).

أو ما اقتدر عليه من "المساحة الشاسعة التي يكتنزها أفق نظره، ويعكسها برنامجها المكثف، ومنهج المتنوع في الرصد والكتابة"(5)، و"لا يألو جهدا في ذكر مختلف مشاهداته وعرضها بدقة كاملة لتكون في متناول قرائها"(6).

إلا أنّ الباحثين المحققين في النصوص بيقظة ابستمولوجية من أجل الوصول إلى الإشارات الصادقة عن وقائع ثابتة سلّطوا منهج نقد الوثيقة على نصوص الرحلة، وتناولوها بالشكّ من كلّ الجوانب، واعتمدوا في ذلك على كلّ المعارف التي أنتجتها العلوم الأخرى. دون أن يلغوها برمتها، وحاولوا أن يبقوا على أثرها في الكتابة التاريخية وفق ما اقتضته المنهجية.

فابن بطّوطة والوزّان مثلا "لم يدوّنا مشاهداتها إلاّ بعد سنين عديدة معتمدين على ذاكرتيهما القويتين"(1). و"استعادتها كما وقعت بالفعل من حيث الحركة والسرعة

(1) مقصورة على الرحال نفسه، أي صورة لانفعاله بالمشاهدات، وتوقيعه لها كما تمثّلها.

(2) Stéphane (Yerasimos): Explorateurs de la modernité. Les ambassadeurs ottomans en Europe, in: Genèses, Paris 1999, No 35, p 66.

(3) طاهر بن علي، المرجع السابق، ص 125.

(4) صالح مغبري: رحلة الغرب الإسلامي من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر للميلاد، ترجمة عبد النبي ذاكر، د ط، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، كلية الآداب طهر المهرار، فاس، المغرب، د ت، ص 42.

(5) عبد المجيد بن جيلالي: مدينة فاس في كتابات الآخر «رحلات عبد الله الجارري، الوجه الآخر للحياة العلمية والاجتماعية»، في فاس في تاريخ المغرب، د ط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 2009، ص 117.

(6) محمد بن عبد العزيز الدباغ: جولة مع ابن بطّوطة في رحلته، المناهل، ع 59، الرباط 1999، ص 125.

والدقة أمر في غاية الصعوبة، ولذلك تتشكل وفق لحظات الاستعادة، ووفق المعالم المرصودة من قبل المؤلف، والموكولة إلى السارد ووفق الغايات المقصودة⁽²⁾. "الأمر الذي سرب إلى كتابيها أخطاء ضخمة بعض النقاد ليتخذ منها ذريعة للتشكيك في عملها"⁽³⁾.

ولم تكن ملاحظاتهم "دوما ناجمة عن الشهادة المباشرة. وأخيرا كانوا يزيّنون نصوصهم ببعض العجائب... استجابة لذوق القارئ الميال إلى العجيب"⁽⁴⁾.

و"من المسلم به أنّ كاتب أيّة رحلة لا يمكنه بأيّ حال من الأحوال أن يتخلّص جملة وتفصيلا ممّا قيل أو ممّا تمّ التفكير فيه سابقا، ما دامت كلّ رحلة كيفما كانت هي فيشكلها ومضمونها ممارسة مرتبطة بمبدئيا بمشروع ما معلن أو غير معلن، واعى أو لاواعى. فمن المستبعد أن يتخلّص الرحّالة من الرصيد التاريخي لمن سبقوه..."⁽⁵⁾.

كما "يستعصى على هذا الحاكي الفهم الموضوعي للثقافة والمجتمع المتفرّج عليه، فكانت المشاهد والتمثّلات تخضع، إمّا عن وعي وإمّا عن غير وعي، لمكوّنات شخصية "الرحالة"، وتتأثّر من جهة ثانية بظرفيات الرحلة نفسها"⁽⁶⁾.

أو يصير السرد في نصّ الرحلة إلى شرطها، حيث "تشرط الرحلة العلاقات والأشكال الرمزية القائمة بين الرحّالة-السارد وبين الفضاء والزمان. ويحمل هذه

(1) محمّد حجّي: ابن بطّوطة والحسن الوزان في بلاد السودان الغربي وراء الصحراء، المناهل، ع 60، الرباط 2000، ص 61.

(2) إسماعيل زردومي، المرجع السابق، ص 37.

(3) محمّد حجّي، المرجع السابق، ص 61.

(4) صالح المغربي، المرجع السابق، ص 44.

(5) محمّد جادور: تمثّلات تاريخ المغرب من خلال الرحلات الأجنبية، في الرحلة: مغامرة أم مشروع، تنسيق رشيد الحضري وآخرين، ط 01، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك، الدار البيضاء، المغرب 2003، ص 24.

(6) عبد المجيد القدّوري: سفراء مغاربة في أوروبا 1610-1922، في الوعي بالتفاوت، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1995، ص 09.

العلاقات وتلك الأشكال خطاب يدمج ذاتيته داخل موضوعية الواقع، والتاريخ، وما هو اجتماعي، وسياسي⁽¹⁾.

إننا من خلال النصّ -والنصّ حضور محنّ لذهن في الماضي⁽²⁾ - كثيرا ما نجابه معضلة المزايلة بين ما هو ذاتي عند الرّحالة وبين ما هو واقعي، ومن ثمّ يعترينا عدم القدرة على معرفة التاريخ. فمن الصعب جدّا تحصيل التقييم في النصّ بمسطرة دقيقة. في منصوص كتب الرحلات؛ كثير من تنوّع الحدث المحمول غاية للمشاهدة، وفيه ملمح عن المشاهد (بالفتح) والمشاهد (بالكسر). فلو قارنا نصّ العياشي ونصّ الوزان فيما يخصّ قرى إقليم توات لوجدنا أنفسنا أننا نباشر السيكلوجي لدى الرّحالة من خلال محكياته عن الواقع والاجتماعي⁽³⁾. أي نقرأ ذهنيته من خلال تمثّلاته لما رأى أو سمع.

وهكذا يدفعنا نصّ الرحلة إلى تمثّل آخر للمعرفة المستنبطة منه، ذلك "أنّ طبيعة المعرفة في الرحلة هي أنّها معرفة مقايضة... وآلية المقايضة لا تؤدّي إلى حلّ للمشكل وإنّما تؤدّي إلى تعقيده. بناء على هذا نفترض أنّ عملية المعرفة التي يقدّمها ابن بطّوطة في رحلته تحكّمت فيها هذه الآلية"⁽⁴⁾.

وعليه يجب أن نعمل من لدنّا آليات لكي نفتح المعرفة على حقيقة التاريخ دون أن تأسرنا ذهنية الرّحالة، أو تشغب علينا سيكلوجيته. ومن هذا السبيل تترأى لنا

(1) فلاديمير كريزينسكي: خطاب الرحلة ومعنى الغيرية، ترجمة يونس لشهب، في الرواية والسفر تقاطعات التخيلي والتسجيلي، تنسيق شعيب حليفي، منشورات مختبر السرديات، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسك الدار البيضاء، المغرب 2015، ص 15.

(2) هذه مفاهيم من أنتاجنا نبسطها في الساحة الثقافية، لنبرز أنّنا وإن استلهمنا هذا الزخم من النصوص، فلنا ذاتنا العلمية التي نعتدّ بها.

(3) انظر مثالا لذلك:

عبد الله بن محمّد العياشي (ت 1090هـ/1679م): الرحلة العياشية، تحقيق: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، ط 01، دار السويدية للنشر والتوزيع، أبو ظبي 2006، ج 01، ص 79. وحسن بن محمّد الوزان (ت بعد 957هـ/1550م): وصف إفريقيا، ترجمة: محمّد حجّي ومحمّد الأخضر، ط 02، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج 02، ص 133.

(4) محمّد مفتاح: المعرفة والحقيقة والدلالة في رحلة ابن بطّوطة، المناهل، ع 60، الرباط 2000، ص 121.

شعب أخرى من أجل فكّ التاريخ في نصّ الرحلة. وتتظافر دراسات كثيرة لتحدث مفاهيمنا من أجل تمثّلات التاريخ فيها، ومنها أنّ "دراسة هذه الرحلات رهينة بالبحث عن شخصية من دونها لمعرفة أخلاقهم وللاطلاع على مستواهم العلمي وعلى مدى ما يملكون من مؤهّلات الإخبار... التي تجعلنا نقبل ما دونوه أو نرفضه"⁽¹⁾.

مثال ذلك دراسة لرحلة مغربية إلى مدينة القدس، ففيها نلمح العبارات التالية: "...يطغى عليه البعد الروحي على روايته للقدس الشريف... في تقديس المؤلّف للأماكن الدينية في القدس وفلسطين... قدّم لنا قصصا خرافية أخرى دون أن يشكّ في صحتها... نلاحظ مزج العناصر الروحية بالعناصر التاريخية والدينية والخرافية... ليخرج بسرد ملتحم يطبعه التنوّع... يتميز وصفه بالبعد الذاتي... اندماجه في المجتمع الفلسطيني اندماجا عظيما..."⁽²⁾.

ومن منظور آخر، يقدّم لنا باحث تجربة التعامل مع نصّ الرحلة فيقول: "إنّ الكتابة وهي تستند إلى وصف الواقع وفهمه، كما في النصوص الرحلية، تصبح وثيقة بالمعنى العام ممّا يجعلها تخفي أو تحقّق تأويلات منسجمة أو متناقضة، خصوصا إذا كانت هذه الرحلات المعنية قد أنتجت في سياق متوتّر... الأمر الذي يجعل من الرؤية والتأويل مسألتان حاضرتان ضمن قطبين وملحمية أساسين: أوّلا: وعي الكاتب... ثانيا: لاوعي النصّ... فما يبقى له هو الانتقاء واختيار الموقف والصيغة والمقدرة اللغوية في بناء سرود وأوصاف وتعليقات تسهم في ترسيخ الموقف والرؤية..."⁽³⁾.

(1) محمّد بن عبد العزيز الدبّاغ: العبدري وأبحاه الأدي من خلال رحلته، المناهل، عدد 39، الرباط 1990، ص 98.

(2) محمّد المنوني ومحمّد بن عبّود: رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين، المناهل، ع 39، الرباط 1990، صفحات 26-30.

(3) شعيب حليفي: الرحلة ولاوعي الرحالة، بصمات، ع 06، الدار البيضاء، المغرب 2015، ص ص 10-11.

خاتمة:

- خلصت الدراسة إلى نتائج معرفية ومنهجية، يمكن أن نجملها فيما يأتي:
- التوثيق أساس الكتابة التاريخية. وعلى المؤرخ تنويع وثائقه بالبحث في كل النصوص التي كتبت لغرض التاريخ أو لغرض غيره.
 - الرحلة نصّ مكمل لنصوص التاريخ، ولتاريخ لم تعن به كتب التاريخ.
 - نصّ الرحلة مهما أخطأ في محموله، إلا أنه دوماً يبقى صالحاً للاستثمار.
 - ما من رحلة إلا ولنا معها معاناة، فقد تخرجنا من التاريخ إلى اللاتاريخ، وتصم كتاباتنا بالخرافة والأسطورة. ومن الأسطورة أن تجعل بينك وبين الحقيقة نصّاً كتبه صاحبه في لحظة مغايرة للحظة ذهنه، أو لحظة مغايرة للحظة رحلته، وفي كلتا الحالتين تضيع الحقائق.
 - نصّ الرحلة يتحلّى بالخطورة ليفرض علينا دراسة متأنية، فلا يمكننا أن نهمله، كما لا يمكننا أن نعتمده مباشرة. وهكذا يفرض علينا دراسة موازية لدراسة التاريخ المستل منه.
 - إنّ الدراسات التاريخية حفريّة في النصوص بكلّ المعارف لإنتاج معرفة تاريخية، وهي حضور ذهني، ومنهجي، وابستمولوجي في لحظة نصّ يحمل ثلاثة أزمنة في آن واحد: زمن الحدث، زمن الكتابة، وزمن الذهن المتنقل بينهما.
 - تقييم الحقيقة في نصّ الرحلة يفرض رحلة في ذهنية صاحب الرحلة، ومعرفة مدى تفاعلاته مع ما رأى وما سمع، وما حضر.